الفن القصصي في جنوب افريقية

من الرومانسية الى الثورية

محمد جلال عباس

ليس من شك في أن ظروف الصراع العنصري في جنوب افريقيا كان لها أثرها الكبير على مختلف فنون الأدب وبخاصة الفن القصصي. وجدير بنا ونحن نشارك العالم اهتمامه بقضية جنوب افريقيا أن نتابع أيضاً تطور الآداب والفنون في ظل تلك الظروف. ونقدم هنا محاولة لاستجلاء تاريخ وملامح الفن القصصي في ظل الظروف السائدة وتطورها في هذا القطر الذي يعاني شعبه كل أنواع القهر والقمع ولكنه يلقى من العالم كله المساندة والتأييد.

الحياة الثقافية في جنوب إفريقية:

ردّت زوجة أحد قصاصي جنوب إفريقيا المشاهير على سؤال أصدقائه عن أحواله بعد خروجه من السجن وتحديد إقامته في منزله قائلة « إنه يقضي وقته في كتابة القصص والمقالات »، ولما استفسروا منها عن كيفية إفلاته من قبضة رجال الشرطة العنصرية قالت « كلما أتم صفحة أخفيتها تحت مشمع الأرضية أو في قاع سلّة البصل ثم آخذها معي إلى السوق لتصل من خلال البقال أو الجزار أو أحد المتسوّقين أو المتسكّعين العاطلين إلى حيث تطبع ويتداولها الناس سراً ».

لم يستطع هذا القصاص وغيره من الكتاب مواصلة الحياة في ظروف الانغلاق فهاجر إلى خارج البلاد لينضم إلى المئات من أقرانه الذين هربوا بأقلامهم ليشرعوها في وجه حكومة الأقلية العنصرية البيضاء، وليخاطبوا العالم في حرية وانطلاق.

ولا يعني هذا أن الأدب والفن قد هاجر تماماً من جنوب إفريقيا بل إنه كما ذكر الشاعر الشاب ديفيس بروتس « بقي الكثيرون يكتبون ويبدعون دون أن يشتهروا على نطاق واسع، ولكن كتاباتهم تقرأ في كل مكان وتحمل إبداعاتهم الرسالة بالقصة والقصيدة والمقال وغيرها من الفنون إلى أبناء الشعب يتداولونها في صورتها المخطوطة أو في منشورات سرية » ولكن كما هو معروف ينتهي أمر معظم تلك المواد الأدبية المتداولة سراً إلى أيدي رجال الشرطة العنصرية، فيحاكم القارئ بتهمة القراءة كما يصل الأمر بالطبع إلى محاكمة الكاتب بتهمة الكتابة طبقاً للقوانين العديدة التي تحرم النشر وتجرّمه.

وكان قانون الأراضي الذي صدر عام ١٩٢٧ هو أول القوانين التي نصت بصراحة على منع الصحفيين والكتاب في الأراضي المخصصة للافريقيين من جمع أي معلومات أو نشر أي أنباء عنها بدون تصريح مسبق من السلطات المختصة.

ومنذ أن سيطر الحزب الوطني الذي يمثل مصالح المستوطنين البيض على البلاد تماماً بعد الحرب العالمية الثانية صدرت سلسلة من القوانين تضمنت الحدّ من النشر والطباعة مثل بعض مواد قانون الأمن العام سنة ١٩٤٨ وقانون نظام السجون سنة ١٩٤٩ وقانون قمع الشيوعية سنة ١٩٥٠ ونص بصراحة في قانون العقوبات المعدل رقم ٨ لسنة ١٩٥٣ على ما يلي:

« يعتبر في عداد الجريمة أي توجيه أو تشجيع أو إثارة للرأي عن طريق الكلمة المسموعة أو المقروءة، أو نشر أي أشياء تنتقد القانون أو تصرفات الحكومة ويدخل ضمن

ذلك الأقاصيص والشعر وغيرها مما ينشر في الصحف أو يطبع في كتب أو منشورات متضمناً احتجاجات مباشرة أو غير مباشرة».

وتكرّر النص على تجريم كتاب المصنفات الأدبية وصناع المصنفات الفنية في عديد من القوانين الأخرى التي توالى إصدارها ومنها قانون الدفاع سنة ١٩٦٧ وقانون التحريات سنة ١٩٧٩ والذي نص على ما يلي:

«أي شخص يحاول التعليق المغرض المباشر أو غير المباشر أو يقوم بنشر أقاصيص أو أشعار أو أحاديث يريد بها التأثير على الغير يعتبر مرتكباً لجريمة يعاقب عليها القانون، ويتعرض بذلك للمحاكمة الجنائية».

هكذا أصبح النشر جناية، وأي فن من فنون الأدب جريمة. وأخذ الأدب في السنوات الأخيرة يختفي وراء الأستار، ويمارس في سرية، ولكن رغم ذلك ظل قائماً كرسالة بين المفكرين والمبدعين وبين الشعب المناضل رغم الحجر والقمع والمنع والتجريم. بل وأخذ الأدب يخرج من وراء قضبان السجون إلى الشعب في كل أنحاء جنوب أفريقيا، ويصل من الخارج ليسهم في النضال. وينطبق هذا على الفن القصصي الذي تطور من مراحله المبكرة الرومانسية إلى مرحلته الثورية الحالية التي يعكس بها صورة الحياة والاحتجاج والثورية.

أوائل القصص والروايات:

ظهرت طلائع الفن القصصي الحديث خلال النصف الثاني من القرن الماضي حيث ظهر من بين الملونين الذين تلقوا تعليمهم التبشيري من يكتب القصة بالأسلوب الحديث. ولئن كان معظم ذلك القصص المبكر كان يكتب باللغات البانتوية المحلية متضمناً أغراضاً وموضوعات تقليدية إلا أن بعض الكتاب كتبوا باللغة الانجليزية بعض القصص القصيرة الذي كان ينشر في المجلات المحلية، وكان بعض ذلك القصص يعكس صوراً للمعاناة والمخاوف وظروف اغتصاب الأرض والسخرة التي حلت محل الرق ومصاعب حياة عمال التعدين وغيرها من مظاهر الحياة الامبريالية التي طغت على البلاد بعد أن تمت سيطرة استعمار البيض عليها بشتى وسائل الإرهاب والتقهر والمؤامرات.

وأعقبت الحرب العالمية الأولى حركة نشر واسعة. حيث ظهر العديد من الصحف والمجلات التي أصبحت منبراً للتعبير ومدرسة تخرج فيها معظم الكتاب والأدباء والقصاصين الأوائل. ولكن حافظت اللغات البانتوية على وجودها كأداة للتعبير جنباً إلى جنب مع اللغة الانجليزية التي أصبحت لغة رسمية ولغة تعليم.

وظهر في هذه الفترة المبكرة أول كاتب روائي في جنوب افريقيا هو توماس امقولولو الذي كتب بلغة السوزو رواية «شاكا» التي تحكي بطولة هذا الزعيم الوطني الذي حاول توحيد البانتو لمواجهة الغزاة البيض الذين أخذوا في عهده يزحفون على أراضي الوطنيين ويغتصبونها ويسخرونهم في زراعتها.

ولما ترجمت رواية شاكا إلى الانجليزية والفرنسية فيما بعد أصبحت مصدر وحي لأدباء آخرين من القارة الافريقية، فقد استلهم منها الشاعر السنغالي الشهير ليوبولد سنغور «الرئيس السابق للسنغال» مسرحيته الشعرية التي تحمل نفس العنوان «شاكا» كما حولها الكاتب المالي سيديو باديان كوياتي إلى مسرحية بعنوان «غازي الزولو» مثلتها العديد من الفرق المسرحية في غرب افريقيا الناطقة بالفرنسية وفي باريس خلال فترة المواجهة مع الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية. ونفس الشيء فعله الكاتب المسرحي «داهلومي» حيث مثلت مسرحيته في مدارس جنوب افريقيا ثم منعت بواسطة السلطات العنصرية البيضاء تجنباً لما تثيره في التلاميذ من حماس وطني.

الرواية التاريخية والرومانسية:

لم تكن «شاكا» هي الرواية التاريخية الوحيدة التي ظهرت في تلك المرحلة المبكرة بل ظهر عدد من القصاصين والروائيين الذين ينتمون الى هذا الجيل الأول الذي برزت أعماله في أعقاب الحرب العالمية الثانية وعلى رأسهم بيتر ابراهامز (Peter Abrahams) ودان جاكسون (Dan Jackson). وقد نشر بيتر ابراهامز العديد من القصص القصيرة في الصحف التي كانت تصدر في مدينة الكاب خلال الأربعينات الأولى ثم نشر في عام ١٩٤٦ أولى رواياته وهي «عامل التعدين» التي يصور فيها المعاناة التي يعيشها السود في ظل امبريالية البيض. وأعقبها برواية الغزو الوحشي عام ١٩٥١ وهي تحكي قصة الغزو الكبير الذي قام به شعب البوير (الهولنديون المستوطنون) وما صحب عملية الغزو الهجرة الكبرى من جرائم قتل وابادة وحشية واغتصاب الأرض واسترقاق السكان. وانتهت الرواية بتصوير الهزيمة التي لحقت بشعب

المتابيلي بعد القضاء على مقاومتهم في مذبحة كبيرة أحالت أحد الأنهار الجارية إلى نهر من الدماء، وفي واقع الأمر ما زال هذا النهر يحمل هذا الاسم حتى اليوم.

ولئن كانت رواية «عامل التعدين» تتميز بالطابع الاجتماعي ورواية «الغزو الوحشي» تتميز بالواقع التاريخي فإن روايته الثالثة المشهورة «أودومو في المصيدة» التي أصدرها عام ١٩٥٦ تتميز بتصور خيالي لمستقبل الحياة السياسية في القارة الافريقية بعامة، فهي تمثل انتقالاً بفكر الكاتب إلى التصورات المستقبلية التي استوحاها من واقع الأحداث الجارية في أنحاء القارة آنذاك. وخلاصة هذه الرواية أن أودومو الذي استطاع ان يصل إلى مركز السلطة وكرسي الحكم في دولة «بان أفريكا» بمساعدة العمال ونساء السوق قد خان العهد حينما سلم لاجئاً سياسياً إلى دولة بلوراليا العميلة للاستعمار نظير معونة مالية دفعتها إحدى الدول الكبرى لينقذ بها أودومو بعض مشروعات التنمية في بلاده. ورغم أن في هذه المعونة مصلحة اقتصادية إلا أن الشعب في بان أفريكا لم يقبلها لأنه اعتبرها مقابل خيانة وطنية، وتحرك زاحفاً إلى قصر الحكم ليحاصر ذلك الحاكم الخائن الذي مات في ركن من أركان القصر كالفأر في المصيدة.

ومما يستحق الذكر أن هذه الرواية لقيت صدى كبيراً في أنحاء القارة آنذاك، فقد تراءى لكل من قرأها أن أودومو هذا يمثل شخصية كوامي نيكروما «من حيث الطريقة التي تولى بها الحكم» وكان نيكروما قد تولى الحكم بعد خروج الرواية بأشهر قليلة. ثم انتهى أمر نيكروما إلى انقلاب أطاح به كالانقلاب الذي أطاح بشخصية أودومو في المصيدة

ومن الروايات التي تكشف عن طبيعة الصراعات النفسية التي يعيشها السود والملونون في ظل الفصل العنصري روايات داس جاكسون العديدة. ومنها المصيدة. ورقصة الشمس. وثمن الماس. وطريق طويل إلى لندن. والابتعاد نحو الغرب، وجميعها تعالج جوانب واقعية من حياة أفراد أو جماعات من السود والملونين. ومن رواياته التي يظهر فيها الطابع الرومانسي واضحاً جليًا رواية «علامات الحب» بطلها شاب أسود اسمه ماكيبر يريد الزواج من فتاة بيضاء يحبها اسمها ايزابلا، وتعارض أسرتا كل من ماكيبر وايزابلا إتمام هذا الزواج من قبيل التعصب اللوني والتعصب الطبقي أيضاً حيث أن أسرة ماكيبر أسرة فقيرة معظم أفرادها من الخدم أو الأتباع وإن كان ماكيبر نفسه قد تعلم إلى مستوى عال. ورغم تلك المعارضة يتم زواج العشيقان في خارج البلاد حيث ذهب ماكيير ليدرس ويعود الاثنان برابطة الزواج ليلاقيا من جديد (في القسم الثاني من القصة) المعارضة والمعاناة وعدم الاعتراف بسبب قوانين الفصل العنصري التي تحرم الزواج بين البيض والسود فضلاً عن المعارضة الاجتماعية.

ومن كتاب الرواية الرومانسية في هذا الوقت المبكر أيضاً روائي شهير يدعى بلوك موديسون (Blocke Modison) الذي نحا نحو السيرة الشخصية في رواياته وأهمها «اللوم على التاريخ» ويتصدى فيها لحياة الافريقي غير المستقرة منذ طفولته وعلى مدى حياته كلها. ولقد اعتمد المنتج السينمائي ليوئيل روفيسين على هذه الرواية في عمل فيلم بعنوان «عودي يا افريقيتي» (come back Africa) واشترك بلوك موديسون نفسه الذي اشتهر باسم وليام موديسون في تمثيل هذا الفيلم الذي عملت حكومة جنوب إفريقيا في أوائل الستينيات عند ظهور الفيلم على منع عرضه لما فيه من تصوير مأساوي للمارسات العنصرية هناك، وفعلاً نجحت في شراء أكثر نسخ الفيلم لإعدامها ومنع عرضها.

نحو القصة الاحتجاجية:

ولقد تغير الاتجاه الرومانسي الذي ساد الفن القصصي في النصف الأول من هذا القرن نحو اتجاه جديد ارتبط باتساع نطاق الصدام بين سلطة الأقلية العنصرية البيضاء وبين أغلبية السكان من السود والملونين، وكانت تلك السلطات قد أخذت تمعن في فرض سياسة الفصل العنصري وعزل السود في البانتوستانات أو مستوطنات البانتو، ومنع تحركاتهم أو حد منها وقصرها على التحرك من أجل أداء العمل. وبدأ الاحتجاج يسود أوساط السود والملونين خاصة بعد منع حزب المؤتمر الوطني الافريقي الذي يترعمه نيلسون مانديللا من ممارسة نشاطه. وزاد الاحتجاج نتيجة لحوادث شاربفيل وغيرها من أحداث الصدامات المبكرة فانعكس ذلك كله على القصة والرواية.

ولقد لاحظنا ذلك بوضوح في كتاب ازيكيل امفاليلي (Ezikil Mphalili). فمن رواياته التي كتبها خلال الخمسينيات رواية «هنالك في الشارع الثاني» وهي سيرة طفولته وشبابه. يظهر في هذه الرواية بوضوح اتجاهه المعتدل إذ يوحي للقارئ بأن سنوات الطفولة التي قضاها في قريته في ظل الحياة التقليدية سنوات ضائعة من حياته لم ينعم فيها جديداً من الحضارة والثقافة الحديثة التي يؤمن بأن يعايشها ويعيش بها

فيها مع تقاليدهم الافريقية ضرورة لا غنى عنها بعد أن تعايشت الثقافة الغربية مع الثقافة الزنجية وامتزجتا وتزاوجتا بصورة لا يمكن انفصالها بعد ثلاثة قرون من التعايش.

وتظهر فكرة التعايش بين الثقافتين والشعبين في قصته الطويلة « مسز بلوم » «Mrs Blum» التي يصور فيها اعتماد كل من صاحب العمل والعامل، أو المخدوم والخادم كل منهما على الآخر، وبعد أن أظهر مثالب البيض الأخلاقية وتعصباتهم، وتعصب السود وثورتهم لكرامتهم يصل إلى حل هذا التصادم الصعب بتنازل كل منهما عن تعصباته.

ولكن امفاليلي كتب في مرحلة متأخرة قصصاً ساخناً مليئاً بالروح الاحتجاجية مثل قصته « عشاء الساعة الثامنة » التي يصور فيها ثلاثة أشياء أولها الشكوك الدائمة بين البيض والسود، وما يظنه البيض المتعاطفون مع السود في أنفسهم من أنهم أصحاب فضل وأياد على السود. وثانيها تصوير جريء لما يجري في السجون من بشاعات، وفظائع. وثالثها جور القضاء وظلمه، وذلك كله من خلال شخصية القصة الرئيسية وهو رجل أصيب بعاهة أثناء وجوده في السجن بتهمة السرقة في محاولة رئيس السجانين أن يكتشف مكان تخبئة المسروقات ليستولي عليها، وانتهاء هذا السارق إلى قاتل السيدة أو الفتاة البيضاء التي كانت تدير الملجأ بسبب شكوكه فيها أيضاً.

ولئن كان امفاليلي من جيل قديم تطور من الرومانسية إلى الاحتجاجية فإن هناك عدداً كبيراً من قصاصي جنوب افريقيا ارتبطت حياتهم بالنضال والأحداث كما سنرى في ذكر أمثلة منهم.

قصص جيل النضال:

ويأتي في طليعة هذا الجيل الكاتب والقصاص اليكس لاجوما (Alex Lagoma) أحد مناضلي المؤتمر الوطني الافريقي الذين اتهموا في قضايا عديدة وحكمت عليهم المحاكم العنصرية بأحكام مختلفة، وقد خرج لاجوما من السجن عام ١٩٦٤ ليقضي سنوات في إقامة محددة في منزله تحت الرقابة مما اضطره إلى الفرار أخيراً إلى المهجر ليواصل الكفاح بقلمه مع رفاقه المهاجرين أو المنفيين.

ولاجوما كاتب غزير الإنتاج له مقالات وقصص عديدة في مجلات جنوب افريقيا وكثير من المجلات العالمية واتسمت قصصه بالواقعية وحرارة الاحتجاجية. فواقعيته تظهر في قصص كثير نأخذ منها مثلاً قصة البطاطين التي يصور فيها حالة الضياع التي يعيشها الأسود الافريقي في شخص شاب جريح مضروب بمدية في شجار عنصري متكرر، تتداعى عليه ذكريات المعاناة والفقر والبطالة من رائحة البطاطين التي يغطونه بها في داخل قسم الشرطة إلى أن تأتي سيارة الإسعاف فتغطيه في داخلها بطانية نظيفة دفيئة تتداعى معها الحياة الطيبة المستقرة.

ومن قصصه الذي يجمع بين واقعية عاشها واحتجاجية تنبثق من داخله مليئة بلمسات إنسانية قصته « من خلال الظلام » التي يصور فيها حياة السجون التي خبرها، من خلال زميل الزنزانة الذي يحكي قصة دخوله السجن نتيجة صراعاته الساخنة وانفعالاته الثائرة ضد قوانين الفصل العنصري والحاجز اللوني.. تلك الانفعالات التي أحالته إلى مجرم سجين الزنزانة.

ومن قصاصي هذا الجيل أيضاً ريتشارد ريف وجيمس ماتيو، ولئن كانت قصصهما من النوع الاجتماعي إلا أنه لا يخلو من تصوير الغضب الثائر على الفصل العنصري، ومن أمثلتها قصة « المطر » لريتشارد ريف، وتجري أحداثها في مطعم مملوك ليهودي بمدينة الكاب نلمس فيها من خلال النقاش الدائر نظرة اليهود العنصرية ضد السود والملونين كما تعكس آثار قوانين الفصل العنصري ومسائل الحب والزواج في أحداث العنف وما يثيره من أحزان.

ولجيمس ماتيو في قصصه أيضاً خاصية واقعية يعكس فيها حياته، فقد بدأ حياته كبائع صحف متجول، وظل يغالب الحياة حتى أصبح محرراً في مجلة درام (Dram) الأسبوعية المعروفة. وله قصة بعنوان « الحفل » يعبر فيها بإدراك واع عن العلاقات القائمة بين البيض من جهة والمثقفين السود من جهة أخرى. وما يحكم تلك العلاقات من عوامل نفسية أساسها عنصري تنعكس في شخصيات القصة التي تجمع من البيض رجالاً ونساء يتعاطفون مع السود المثقفين أو لعلهم يتظاهرون بذلك، ويتخذون من السود عنصر تسلية. ومن بين السود شخصيات مثل شخصية رون الذي ينافق البيض ويتمسح فيهم من قبيل التفاخر بصداقاتهم والتقرب منهم، ومنهم شخصية أبوللوس الكاتب الناشئ الذي يحافظ على كرامته ويترفع عن الأساليب غير الكريمة. ولا يوفق في التعامل معهم ويقف موقف الثورة في وجههم ورفض سلوكهم وتصرفاتهم ومعاملتهم فيغادر الحفل رافضاً محتجاً.

انعكاسات الأحداث في القصة:

والقصة كرسالة بين الكاتب والقارئ بلغت في جنوب افريقيا أقصى درجات السخونة والثورية والتي تمتزج بالجوانب الانسانية في تصوير الأحداث في قصص الكتاب الشبان الذين عاشوا أحداث الصدام الأولى في طفولتهم وعايشوا النضال والمواجهة وما زالوا يعايشونها في حياتهم يقاومون قوانين الفصل العنصري التي تسلبهم حق الحرية والمساواة، وتستخدم تلك القوانين وتطبق التعليمات بصورة مشينة مسيئة لتبرير أعمال الاعتقال والسجن بدون محاكمات وقمع المظاهرات وإرهاب الآمنين في داخل بيوتهم الى غير ذلك من الممارسات العنصرية الوحشية الخالية من الانسانية.

ومن قصاصي هذا الجيل كاسي موتسيسي (Kassi Motsisi) وله قصة بعنوان «المظاهرة». تدور أحداثها أثناء إضراب الافريقيين عن استعمال المركبات العامة بسبب رفع أجور الركوب فيها، ويتعرض الناس جميعاً بدون استثناء للتفتيش التعسفي والاعتقالات، ومواقف المواجهة مع قوات الشرطة، ففي القصة صور عديدة منها القبض على شخص وهو نائم في فراشه لأنه لا يحمل تصريح المرور (الموجود في جيب سرواله المعلق وليس معه في فراشه) وتوجيه تهمة السكر بمجرد وجود زجاجة خمر ولو فارغة على مائدة في داخل المطبخ، وتستمر أحداث القصة إلى اليوم التالي حيث تحدث المظاهرة الكبيرة والصدام المباشر بين الشعب الآمن وقوات الشرطة، ويخرج من بينهم شرطي تدفعه إنسانيته إلى الابتعاد بطفلين يجرهما بعيداً عن موقع ضرب الرصاص، فتظن الأمهات به الظنون ويردينه قتيلاً، وتأتي أم أحد الطفلين لتبكيه لأنه شرطي طيب كان له معها موقف إنساني في الليلة السابقة.

★ ★ ★

هكذا مرّت القصة في جنوب افريقيا بمراحل متعددة تغير فيها شكلها وملامحها مع تغير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، مما يؤكد لنا أن صدى الأحداث ونبض الحياة يتردد فيها، كما يؤكد لنا أيضاً مشاركة القصة والرواية مشاركة فعالة في واقع الحياة ومسيرة النضال.

ولئن كان معظم ما نشر من قصص وروايات جاء على يد قصاصي المهجر والمنفى، إلا أن هناك الكثير من القصص ما زال يكتب في الداخل ويتداوله القراء، ويعتبر بمثابة رسالة تنتقل إلى المناضلين وتلعب دورها في مسرح أحداث صراع الشعب الافريقي ضد الحاجز اللوني والفصل العنصري في سبيل تحقيق مجتمع تسوده المساواة.

صدر حديثاً

علّمنا أن نتجاوز جنوننا!

للروائى اليابانى

كينزا بورو أوي

ترجمة كامل يوسف حسين

منشورات دار الآداب